سؤال الاستلاب الوجودي في رواية "حين تعشق العقول"

The question of existential alienation in the novel When Minds Adore

طارق عبود *

الجامعة اللبنانية – لبنان tarek_a70@hotmail.com

تاريخ الإرسال:07-03-2020 تاريخ القبول:20-07-2020 تاريخ النشر: 03-01-2021

ملخّص: يدرس البحث، الأسئلة المتنوعة التي طرحتها الكاتبة في الرواية، وما اختزنته الشخصيات من رؤى إلى العالم والكون والخلق والوجود، وتبيّن لنا أنّ شخصيات الرواية، ولا سيما تلك التي تدور في فلك "صوفي" الشخصية الرئيسة، تحمل أفكارًا وتساؤلات، تستبطن اعتراضًا وتشكيكًا في كثير من الأفكار الجاهزة التي يعمل المجتمع على إسقاطها وتذويبها في عقول أبنائه، وينتقل العشق والحب من المفهوم النمطي الوجداني، إلى العشق العقلي الذي يروم إلى الانفتاح على العالم، من دون الخضوع إلى أي إسقاط أو أنموذج جاهز، فينطلق العقل متحررًا في فضاء الحرية معانقًا تساؤلاته الكثيرة، فيرى المشهد من غير زاوية، بكليّته، ولو أنّ هذه الأسئلة قد راكمت الحزن، ولم تشفِ الصدر، فتسلّم "صوفي" الراية إلى المتلقي، بعدما حطّ بها المرض في المحطة الأليمة ،التي وصل إليها الحبيبان، في استعادةٍ مفاهيم الحب العذري العفيف، الذي ظهرت سماته واضحة بين سطور الرواية، أو الاقتراب من الحب الأفلاطوني الذي يبتعد من كل نزعة جسدية وشهوة بهيمية، وهو الذي يرتفع عن الصغائر في رحلة سموّه، فتتعانق في فضائه الأرواح والنفوس. ساعية إلى التوحّد مع مثالها المطلق الذي انفصلت عنه، وهي التي لا تزال تحنّ إليه .واستخدمنا في البحث المنهج البنيوي التكويني، لأننا أردنا دراسة الرؤية التي حملتها الشخصية الرئيسة، والشخصيات الأخرى في الرواية.

كلمات مفتاحيّة: عشق العقل؛ الهند؛ البنية؛ الرؤية؛ صراع؛ اله؛ الحرية؛ الحقيقة.

Abstract: The study studies the various questions posed by the author in the novel, and the visions stored by the characters from visions to the world, the universe,

* المؤلف المرسل.

creation, and existence, and it became clear to us that the characters of the novel, especially those that revolve in the main character's "mystic" astronomy, carry ideas and questions that elicit objection and skepticism in many From ready ideas that society seeks to overthrow and dissolve in the minds of its children, love and love are transferred from the stereotypical concept to emotional love that aims to open up to the world, without submitting to any projection or ready model, so the mind is released in the freedom space hugging its many questions Veer The scene without a corner, in its entirety although these questions accumulated sadness and did not heal the chest, Sophie delivered the flag to the recipient, after the disease landed in the dire station, which the two lovers reached, in restoring the concepts of chaste virgin love, whose features appeared clear between the lines of the novel, or approaching From the Platonic love that departs from every physical tendency and animistic lust, and he who rises above the minor in his highness's journey, embraces in his space souls and souls. Seek to unite with her absolute example, which she separated from, and she is still yearning for him. We used the research structuralist approach, because we wanted to study the vision carried by the main character, and other characters in the novel.

Keywords: Love of minds; India; Structure; vision; fight ; Identity ; freedom ; Truth.

1-المقدمة: "حين تعشق العقول"، رواية للكاتبة والباحثة "ناتالي الخوري الغريب"، صدرت عن دار "سائر المشرق في العام." 2015. وقد جاء على غلاف الرواية موجز ما أرادت الكاتبة الكلام عليه في مضمون الحكي، فأشارت إلى أنّها "رواية البحث عن الحقيقة في الحبّ والعقل والألوهة. تعاني "صوفي" من أزمة هوية كما الكثير من الخلاسيين، فتنطلق في رحلة التفتيش عن انتماء جديد يتجاوز الديانات وطقوسها، والحضارات وألوانها، والجذور وتعدّديتها. فتحاول إيجاد الإجابات عن إمكانية وجود الخلاص خارج الأديان التوحيدية، كتأكيد على الرحمة الإلهيّة، مترجّحة بين الشكّ واليقين. وخلال بحثها، تعيش قصة حبّ مع "أبراهام" على ضفاف نهر الغانج، لتدرك أنّ عشق العقول هو الحقيقة التي كانت تبحث عنها، يترجمه تآلف الأرواح متى وجدت بعضها"[1]. تعالج الكاتبة هذه القضايا الفكريّة بأسلوب جميل يحمل سمة السهل الممتنع، ولكن فيه الكثير من التساؤلات الجريئة التي تتوارد على ذهن كلّ إنسان بلغة تتفاوت

بين الشعرية والسردية، وبين الفلسفة الوجودية. و"على طريقة بعض الأدباء الذين تغلّفت كتاباتهم بأشرطة فلسفية تركت بصماتِها واضحة على صفحات الإبداع، تُلمّح الكاتبة منذ انطلاقة النصّ، ثمّ تؤكد في المتن، أنّ حياة واحدة لا تكفي لاكتشاف أسرار الكون والوجود، بل إنّ الأمر يحتاج إلى حيوات أكثر."[2]

هذا هو قطب الرحى الذي يدور حوله النص، وهو الخيط الواصل بين أجزاء الحكاية منذ انطلاق قطار الحكي الذي ترتبط به القضايا الأخرى على الرغم من أهميتها، وكان التركيز على رفض المفاهيم والقوالب الجاهزة التي تسهم في فرملة ماكينة إعمال العقل، والتفكير خارج الصندوق الذي وضعَ السابقون الناسَ فيه، وأقفلوا عليهم. فكثرت الأسئلة عن الديانات التوحيدية، وهل هي الخلاص الفعلي حقًا؟

هذا ما بدأت "صوفي" البحث عنه والتفكير فيه عندما تغيّر المكان وتبدّل. لماذا اختارت ناتالي الخوري غريب «حين تعشق العقول» عنوانًا لروايتها الجديدة؟ ولماذا تصرّ على إبعاد القلب العاشق عن العقل المفكِّر؟ في رحلة التفتيش عن الحقيقة، تشدُّ الرّحال من لبنان، البلد الصغير، الرابض في زاوية صغيرة من زوايا آسيا، إلى ليبيريا، البلد البعيد في غربيّ إفريقيا، إلى أكبر بلدان العالم، الهند، ومنها إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، ترتحل للتفتيش عن حقيقة ما، أوعن حقائق أصغرها بحاجة إلى عقل نيِّر ليدركها. في الهند تعرفت إلى ثقافات وأفكار متنوعة، عَبَثَتْ بما حملته من أفكار جاهزة في عقلها وبعثرتها، فحاولت البطلة ترتيبها من جديد، من دون أن تستطيع الوصول إلى الحقيقة التي جاهدت في البحث عنها. هُوِّيَّات وأفكار كلّها تبحث عن الحقيقة الناصعة لتشبع جوع عقولها الباحث عن الحقيقة... تريد أن تحطّم قضبان المعتقل وأبوابه. وفي الهند تلتقي بـ"أبراهام" الهارب إليها حاملًا معه آثام الحرب التي خاضها

الأميركيون على أرض العراق، وأزهقوا فيها أرواح مليون ضحية متسلحين بحجج واهية، محاولًا الاغتسال من أدرانها في نهر الغانج.

"هي في الثّلاثين، عايشت تجارب عدة، قرأت ذاتها، بين لبنان، وأَفريقيا، والهند، وغيرها، باحثة عن الحقيقة، وسَطَ الغربة، وعن الحُبّ في عالم الحقد والعنصريّة، وعن الغاية من الأَديان في عالم التّناقضات، والعنف، والصّراع على كلّ شيء، في الدّنيا، وفي الآخرة. كانت تُكثر من طرح الأَسئلة، حول الزّمان، والإنسان، والمكان، والرّموز، والحبّ، والحياة، والموت– فعل الرَّحمة، ورحلة العقل الشاقّة التي تُصمتُ صوت القلب، لتُصغي إلى تفكّرات العقل، ولو في مناخ ضبابيّ، يحتاج إلى رحلة طويلة، لا تقلّ غرائبيَّة عن مغامرة جلجامش وبروميثوس!"[3]

أولًا: المنهج المتبع: لقد رأينا أنّ المنهج المفيد في هذا البحث هو المنهج البنيوي التكويني، إضافة إلى الاستعانة بسواعد المنهج البنيوي السردي في بعض المحطات. وتسويغ اختيارنا لهذا المنهج هو بهدف الإطلالة على رؤية الشخصيات، أفكارها وتطلعاتها، ولا سيما الرؤية إلى العالم والكون، ولأنّ ما ورد في الرواية يتكّلم على مجتمع ما، مشاكله آلامه، مآسيه، والعُقد التي تحاصره. وفي العقود الأخيرة بدأ النقّاد بالقول بوجود علاقة بين الأعمال الأدبية والوسط الاجتماعي، لأنّ الكاتب لم يأتِ من مكان منعزل، أو من برج عاجي منفصل عن الواقع الذي يتشاركه مع البيئة التي ينتمي إليها، ولا بدّ من ان ينعكس ما يعيشه الكاتب ويعانيه ويشعر به على النص الذي يكتب "ولعل أبرز من قال بذلك "جان بابتست فيكو"، الذي أشار إلى أن "المجتمع لا يقدم ببساطة مسرحيات وأشعارًا أو روايات، لكنّه ينمي أدبًا وأدباء يستخلصون أعمالهم ومهاراتهم الفنية ونظرياتهم منه"[4]

"وإذا كانت المناهج السوسيولوجية التقليدية في دراستها للأدب لم تهتمّ ببنية العمل الأدبي حين تركيزها على العلاقة القائمة بين مضمون العمل الأدبي ومضمون الوعي الجماعي، فإنّ منهج "غولدمان" ركّز على البنية انطلاقًا من الوظائف التي تؤديها في العمل الأدبي. وأشار (غولدمان) إلى الكيفية التي يتوصل عبرها لاكتشاف البنية الدالة، فعلى الباحث – في نظره – لكي يفهم العمل الذي هو بصدد دراسته أن يتقيّد في المقام الأوّل بالبحث عن البنية التي تكاد تشمل كليّة النص، وذلك استنادًا إلى قاعدة أساسية نادرًا ما يحترمها المختصّون في الأدب، وهي أن على الباحث أن يحيط بمجمل النص، وأن لا يضيف إليه أي شيء، وأن يفسر تكوينه. فاستخلاص البنية الدالة في العمل الأدبي عامة، والرواية خاصة، لا يكون إلا عبر قراءة جزئيات النص في ضوء مجموع النص ذاته، مع التركيز على ما له دلالة وظيفية أساسية في العالم. وقد ترك "غولدمان"مجال البحث عن البنية الدالة في العمل الروائي رهينًا بقدرات الناقد الحدسية"[5].

لذا، فإنّ النتاج الأدبي، ومنه الرواية ليس انعكاسًا بسيطًا للوعي الجمعي، وإنما تعبير راق عن هذا الوعي، بمعنى أنه لا يرتبط بأفكار عامة الناس، وإنما يرتبط بالإيديولوجيا والفكر النظري اللذين يصوغهما الأعضاء النابهون للجماعة. من هنا تبرز أهمية الوعي الممكن، إذ بواسطته يمكن تحديد الرؤية بشكل جيد، وخاصة في الأعمال الكبرى.وإنّ "االنص ليس ذرّة مغلقة على نفسها، بل هو نتاج اجتماعي تاريخي يعبّر عن طموحات فئة اجتماعية أو طبقة اجتماعية، وبذلك تصبح قراءة النص الأدبي كشفًا لبنياته المتعددة، ومن ثم إدماجها في البنية الاجتماعية لبيئة المبدع وعصره"[6]

ثانيًا: رؤية الشخصيات إلى العالم:

أ- صوفي، وضياع الهوية، وصراع الإنسان الخلاسي مع نفسه ومع المجتمع.

إنّ مفهوم " رؤية العالم " يعدّ من أهم العناصر التي تتبني عليها البنيوية التكوينية كما صاغها "غولدمان"، وهذا المفهوم استعمله كثير من المفكرين السابقين لـ"غولدمان" أمثال: "ديلثي"، "ياسبرز"، "لوكاتش"، "كارل مانهايم" و"ماكس فيبر"

ويعرف "غولدمان" "رؤية العالم " بقوله: "إنّ الرؤية إلى العالم هي بالتحديد، هذه المجموعة من التطلعات والإحساسات والأفكار التي توحّد أعضاء مجموعة اجتماعية، وفي الغالب أعضاء طبقة اجتماعية، وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى"[7]

لقد عانت "صوفي" الشخصية الرئيسة في الرواية من ظلم المعاناة التي اصطدمت بها حال تكوّن وعيها، فرأت جزءًا من العالم الحقيقي الذي تعامل معها، كونها خلاسية، من دون قفازات أو مجاملات، وفي الواقع لم تجد أحدًا يقف إلى جانبها، مع أنها لم ترتكب ذنبًا كونها وُلدت من أبٍ لبناني وأمٍ أفريقية سمراء. وهذه الحالة هي حالة عامة ومنتشرة بشكل كبيرعند اللبنانيين وغيرهم، ممن هاجروا إلى إفريقيا للعمل، وكسب المعيشة. في هذا السياق يذهب "غولدمان" إلى أن رؤية العالم في العمل الأدبي ليست من إبداع الأفراد، ويرى " في منظور مادي جدلي أنّ الأدب والفلسفة من حيث إنّهما تعبيران عن رؤية إلى العالم –في مستويين مختلفين –فإن هذه الرؤية ليست واقعة فردية، بل واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة وإلى طبقة".[8] وهذا ما عبّرت عنه صوفي في غير مكان في الحكاية.

"تغور "صوفي" في الذات، وتجعل الأمكنة والمشاهد مجرّد جسر إلى الحقيقة. وأَرتنا، وهي في أَوج قلقها، في ليبيريا، ولبنان، وروما، ونيودلهي، أَنّها تبحث عن العدالة، في ظلّ الظّلم، وعن الحقيقة في ظلّ المظاهر الفانية، وعن الله الحَقّ، وسط البخور والنور، والبشر والحيوانات، والطّبيعة والكواكب، والتّقاليد، والتّباينات المُرّة تحت الشّمس. ولئن عايَشَتْ سامي وأبراهام، والهندوسية والبهائية، والمسيحيَّة والإسلام، وغيرها، فهي ظلّت تكرّر أَين الحقيقة يا ترى؟ وكلٌّ يزعم أَنّه يمتلكها، وهي وحدها، تمتلك الجميع، وتبقى بمنأى عن عقولهم العاشقة، واجتهاداتهم الموجعة"!([9])

وإنّ ما يمكن أن نشير إليه هو أنّ الفرد المبدع لا يمكن أن يخلق من تلقاء نفسه بنية فكرية منسجمة تستطيع أن تمثّل رؤية إلى العالم، فهذا الأمر يكون من إبداع الجماعة. أمّا ما يقوم به الفرد المبدع فهو الارتقاء بتلك البنية إلى درجة عالية من الانسجام حتى ترقى إلى مستوى الإبداع الخيالي.

لذا، فـ"رؤية العالم" لا يمكنها في رأي "غولدمان" أن تتكوّن إلا في إطار الجماعة، فعلى الرغم من انتسابها إلى الكتّاب، فإنها ليست من إبداعهم الخاص . فهي في الرواية ترتبط بنظرة الكاتب العامة إلى الواقع الموضوعي، وكلّ رواية لا بدّ من أن تحمل تصورًا معينًا عن هذا الواقع. وهذه الرؤية تختلف مستوياتها وتتفاوت من رواية إلى أخرى، وذلك تماشيًا مع طبيعة هذه الرؤية، فقد تكون شمولية، وقد تكون دون ذلك. والرواية يمكن أن تفقد انسجام الرؤية إلى العالم لتسقط فيما يسمى بالوعي الواقع، وذلك حين تتقلص الرؤية الشمولية

وهذا ما فعلته الكاتبة ناتالي خوري، عندما تكلّمت من خلال "صوفي" المعذبة والتائهة والمظلومة، والمعنّفة اجتماعيًا، كما مجمل الخلاسيين الذين يعانون من الأمر

نفسه، تكلمت عليهم جميعًا، وعبّرت عن رؤيتهم إلى العالم الذي يعيشون فيه. تقول "صوفي" في مستهل الرواية بعدما عادت إلى لبنان عقب وفاة والدها "شعرتُ بنفسي كما دومًا، غريبة بين غرباء، في وطن غريب، على الرغم من أني محاطة بإخوتي، لنا الأب نفسه، لكن هل اختلاف الأم يترك هذا التأثير الكبير في الشعور الممزق بالانتماء والهوية. لأنّ والدتي، تلك الإفريقية المغضوب عليها، لضلال الذين يحسبونها من إنسانية أدنى درجة منهم. هل تؤثر نظرة الناس إلينا بدرجة قبولنا لأنفسنا؟ لم أستطع أن أفهم ما الذي يغذّي عنصريتهم، أنا التي كبرتُ وأكملتُ دراستي الجامعية في لبنان، لم أستطع أن أفهم أو أستوعب ضيق النفوس عند فئة أبت إلّا أن تتلهّى بمآسي الآخرين، وتحكم على تصرفاتهم من دون أن تكلّف نفسها عناء تقليب الأمر على وجهتيه."([10])

يتمظهر ضياع الهوية، في الحكاية، ويتقدّم اللاإنتماء، أو الانتماء إلى اللا شيء، في رؤية غاضبة وسوداوية إلى العالم. تقول صوفي: "كنت أبحث عن انتماء، عن هوية، فأضعتُ هويّتي، وعرفت أنّ الانتماء إلى اللا شيء أفضل الانتماءات، لأنّه أبسطها، وهو يحرّرك من قيود الممكن."([11])

تشظّي الأزمةُ نفسيةَ "صوفي" وتشتّتُها، فتظهر نقمتها على العالم والثقافة والسلوك الجمعي لمجموعات من البشر يحدّدون مسار حياة الناس بسبب لونها "قد يعود السبب إلى حرية اختيارنا، ولكنّنا نولد في بلد لا نختاره، إذ ننتمي إلى ثقافة لا نختارها، فكيف حالك بانتمائي إلى بلدين، إلى ثقافتين، إلى هويتين. نولد في عوائل لا نختارها، ويقولون وُلِدَ الإنسان حرًّا! فكيف نحيا حريتنا؟ قد تكون الحرية ألا تنتمي إلى من تجمعك معهم الهوية الخارجية"([12])

تتفاقم مشكلة "صوفي" عبر إخفاء ابنها فور ولادته، وادّعاء والدها أنّه مات أثناء الولادة، فتنتقل هذه المشكلة عبر الأجيال، وعندما تعلم "صوفي" بعد أكثر من إحدى عشرة سنة أنّ ولدها ما زال حيًا، تبذل جهدًا كبيرًا في التفتيش عنه في أفريقيا، وبعد سنوات تعلم أنه موجود في الولايات المتحدة، وأنّ عائلة عملت على تبنّيه مع أطفال كثر جراء الحرب في ليبيريا، وعندما تجده بعد بحث طويل وشاق، تواجه حقيقة مرة: هل تستردّه، ليعيش المأساة نفسها التي عاشتها، أم تتركه يهنأ بالعيش مع عائلته التي اعتاد عليها، وفي بيئة أقل ظلمًا من لبنان والشرق؟ "إنّ حبّي له كان أكبر من أن أضحّي بهناءته واستقراره طمعًا بتنعّمي به وبحبّه. كانت تضحيتي الكبرى التي قمتُ بها، من أجله. لم أرد أن يعيش في هويّة ممزّقة كما عشتُ. لم أرده أن يذوق طعم الألم الذي ذقت."([13]) إنّ ضياع الهوية عند صوفي يدفع بها إلى التنازل عن أغلى شيء في حياة الإنسان، ابنها والهوية، فتتنازل عن ابنها، إضافة إلى هويتها " هذه هي هوية ثانية أتنازل عنها. هذا قرار مصيريّ لا أريد أن أتحكّم به لأنه ليس لي؟ ليس ذنبه أن يعيش مأساتي... وتضيف في وصيتها، عندما تعلم أنّ مغادرتها الحياة أصبح وشيكًا.. إني خفتُ عليه من هوية ممزقة قد تؤدي به إلى الهلاك "[14]

تواصل "صوفي" إظهار استيائها من الظلم اللاحق بها وبأمثالها، وبكثير من الناس على وجه البسيطة، ومن تشظي هويتها الثقافية والإنسانية " إننا نولد في بلد لا نختاره، إذ ننتمي إلى ثقافة لا نختارها، فكيف حالك بانتمائي إلى بلدين، إلى ثقافتين، إلى هويتين؟"[15]

ثالثًا: النظرة إلى الذات والآخر.

أ- رؤية الشخصيات إلى كلٍّ من الحقيقة والحرية والحرب. تميّزت العلاقات بين شخصيات الرواية بعدد من العلاقات المتشابكة والمعقّدة التي أثرت في نفسيات

الشخصيات، وكان المحور بينها "صوفي" الشخصية الرئيسة، والمركز في الحكاية، بدءًا من علاقتها المتوترة بإخوتها وأهلها في لبنان، مرورًا بما استجدّ من رؤيتها إلى والدها بعد معرفتها بموضوع ابنها، وعلاقتها التي بدّلت رؤيتها إلى الحياة بعد تعرفها إلى "أبراهام" ومرورها على علاقتها بكلٍّ من جواد وهادي، وانتهاءً بعلاقتها بابنها المستعاد، والتي تخلّت عن حضانتها له خوفًا عليه من تكرار ما حصل معها في حياتها.

كانت الرؤية إلى العالم والكون والحياة هي ما ميّزت الشخصيات التي كانت تحمل مخزونًا ثقافيًا عبّرت عنه في أثناء الحديث فيما بينها، وتوزّع ذلك على مروحة واسعة من المشاركين في طرح رؤاهم في عدد من المفاهيم والأفكار في حياة البشر، فأدلى كلّ منهم بدلوه، مبديًا رأيه في الحياة والحقيقة والسعادة والحبّ والحرب والأديان. ولكنّ العلاقة الأكثر أهمية كانت بين كلٍّ من "صوفي" و"أبراهام" في علاقة تميّزت بالحبّ الأفلاطوني أو العذري. وهو ما سنتطرق إليه بعد عرض رؤى الشخصيات الثانوية في الرواية.

يطرح "جواد" عددًا من الأسئلة في مقاربته مفهوم الحقيقة "هل نعرف حقًا أين تكمن الحقيقة؟ هل تأتي الحقيقة إلينا مكشوفة الستر والنقاب؟ أم ترانا نركض خلفها، وهي غير موجودة؟ أم تراها تلك السعادة المقنّعة، وصفاء الوجدان؟ أتراها تلك النعمة التي لا نعيها دائمًا؟ أيكون الوعي بما حصّل من مدارك كلّ بحسب طموحه العقلي يعيش في الحقيقة؟"[16]

يتابع "جواد" كلامه على الحقيقة مخاطبًا صديقه "هادي" قائلًا: " لا حقيقة إلا في الحبّ. هذا يقيني في الحياة.. والحقيقة يا صديقي، لا تُقدّم بكأس على وليمة غذاء.

عليك أن تجرّب، وتفتّش وتتألم، وربما تفقد بطريقك الكثير"[17] فيجيبه هادي، محاولًا التعبير أيضًا عن رأيه في الحقيقة، وتظهير رؤيته إليها، يقول لجواد:"كلنا يفتش يا صديقي عن الحقيقة، وكلنا يحاول أن يترك هذا الطريق الشائك لأنه يعرف في مكان ما، أنه لن يصل إلى الحقيقة الثابتة. ستبقى الحقيقة نسبية. وستبقى لناظرها كليّة. الحياة هي رحلة العبث."[18]

وعبّرت الشخصيات في الرواية عن رؤاها إلى مفهوم الحرية الهلامي والضبابي، بحيث تفهم كلّ شخصية الحرية من منظورها الخاص بها، ومن تجربتها في الحياة.

تستهل "صوفي" الكلام على الحرية كونها الشخصية الأكثر معاناةً، وكون عقلها يغلي بأفكار متعددة، لأن تجربتها لم تكن نمطية أو عادية "تولد في عوائل لا نختارها، ويقولون وُلِدَ الإنسان حرًا! فكيف نحيا حريتنا؟ قد تكون الحرية ألا تنتمي إلى من تجمعك معهم الهوية الخارجية. الحرية أن تنتمي إلى من تريد: إلى البلد الذي تريد، إلى الدين الذي تريد، إلى العوائل التي تريد. الحرية أن تعيش مسرورًا متصالحًا مع ذاتك، مع هويتك، مع انتمائك.

الحرية أن تريد ألا تنتمي، وأن تعيش إرادتك، أو تنتمي إلى من تريد، إلى من يشاركك في طموحاتك، في تطلعاتك، في رؤيتك.

الحرية أن تؤسّس هويةً لا تنزع منك أو تسلب، إلا إذا شئت أنت تبديلها، لتبدّل في رؤيتك ونضجك وتطلعاتك."[19]

أمّا **الحرب** فقد كانت مقاربتها على لسان "أبراهام" كونه جنديًا سابقًا في الجيش الأميركي، وقد ذاق ويلات الحرب، وعاين أهوالها، فكانت رؤيته سوداوية، ووثّق نظرته إلى الحرب ونتائجها وتأثيراتها على المستويين الفردي والجمعي "كنتُ في مهمة عسكرية

في بغداد، وبعد الانتهاء من جولتي اليومية في يومي الأخير، وكنتُ أشاهد على التلفاز الأخبار الدولية، وإذ بي أفاجأ بمدى الخراب والدمار الذي كان منّا، ومن جولاتنا أنا ورفاقي، ومن تدخّلات بلادي. هالني ما رأيت من دم أطفال، وأشلاء أمهات، ربما كنّ قد خرجن يومذاك ليأتين لأبنائهنّ بما يكفي جوع نهار لا يتيسّر إلا بخروج يومي... كنتُ أتيتُ في مهمّتي، وقد اعتقدتُ أني أقوم بواجبي الوطني تجاه شعبي، وتجاه الأمم المظلومة التي تريد الديمقراطية... ولكنّي، وإذ رأيت ما رأيت، أدركتُ خطئي وندمي. هالني ما رأيتُ من ثقافة العدوان، والكيل بمكيالين، واختزان حقد سيورّث إلى جيل وجيل.."[20] وفي مكان آخر يعبّر "أبراهام" عن إحباطه، وهو يصف مشهد القصف الذي تعرّضت له مواقع الجنود الأميركيين في العراق، وكيف رأى رفاقه يموتون أمام ناظريه، فوصف الموت من منظور قريب، ومن شخص كان على مسافة ملتصقة به، واستنتج أنّ "الحقد للأسف لا يواجه إلا بالحقد، والموت لا يجرّ إلا موتًا. كان الموت حليفنا وصديقنا حينذاك، يأكل من صحننا، ويرتشف من كؤوسنا. فقدتُ أربعة من أصدقائي في المركز، ولا أجرؤ على قول شهداء، لا من صفوفنا ولا من صفوفهم. كلنّا مجرمون وسفّاحون بحق الإنسان."[21]

لكنّ رؤية "أبراهام" هنا نراها قد ساوت بين المحتل والمدافع عن أرضه، فالأميركيون كانوا قد غزوا العراق تحت حجج واهية، اعترفوا لاحقًا ببطلانها، وعدم وجودها. وأزهقوا خلال حربهم على هذا البلد أكثر من مليون ضحية من العراقيين. لذا ليس منصفًا مساواة الضحية بالجلاد.

أمّا **الحبّ والزواج** فقد كان لـ"صوفي" رأي فيهما ونظرة، بعد الامتحانات التي مرّت فيها، وشهدت على أحداثها "الحبّ يطهّر الجسد ويصفّيه ويرقيه، فالحبّ لا بدّ من أن

يتجسّد في أعمال تخبّر عنه... في العشق الحقيقي، شغف الأجساد يختلف كليًا عن الشهوة الحسيّة العارضة، إذ يذوب الجسد بالكليّة في جسد من يحبّ، يصل الروح إلى نشوته المطلقة، إلى سعادته القصوى... ممارسة الحبّ ليست عملية آلية، ولذّة آنية هي قران أرواح تآلفت وانسجمت مع بعضها بعد طول غياب."[22] ترتقي "صوفي" في نظرتها إلى الحبّ، فتغرف من المفهوم المسيحي للإله الذي هو عنوان للحبّ والمحبة."نعم، قد تكون المحبة هي الإله الذي يسيّر الكون، هي الإله الذي نتوق إليه، لأنها تلك الطاقة المجدّدة للحياة الإنسانية"[23].

ب-أبراهام - صوفي،الحبّ العذري: "ما تزال الظّاهرة العذريّة على الرغم من القراءات الكثيرة التي قاربتها تثير التّأمل، ومحاولة الوقوف على تفسير مقنع لها، مستعينة في سبيل ذلك بأدوات إجرائية متنوّعة، أوحت كلّ منها بقدرتها على كشف أسرار هذه الظّاهرة، وقد أضاءت تلك الدراسات جوانب مهمّة من الظّاهرة العذريّة، وقدّمت تفسيراتٍ مختلفة، لكلّ منها نصيب من الصّواب، غير أنّها كشفت ثراء الظّاهرة أكثر ممّا كشفت عن أسبابها؛ فكلّ جواب قدّمته ولّد سؤالًا، أو أسئلة، حتى لقد بدت العذريّة ملفّعة بغموض الحبّ نفسه، وبسحره ورحابته".[24]

ترجع خصوبة الظاهرة العذريّة، في بعض جوانبها، إلى كونها تعبيرًا عن الحبّ الذي لا يمكن أن يعرّف إلا بوصفه تجربة روحيّة .ولكونه كذلك، فهو يستعصي على التّحديد الدقيق؛ إذ إنّه ينتمي إلى عالم المشاعر والعواطف، أكثر ممّا ينتمي إلى عالم العقل، فهو شعور وليس معرفة، ولكونه كذلك لا يعرَف إلّا بالتّجربة، غير أنّ هذا الشّعور يتجلّى بصورة تدلّ عليه، هي موضوع معرفة الحبّ، وهي صورة يعتمد تفسيرها على العقل.

استوقفت العذريّة كلّ الذين درسوا الشعر الأمويّ، وحاول كثيرون تعليلها وردّها إلى أسبابها الجوهريّة " فأرجعها بعضهم إلى أسباب دينيّة وخلقيّة، وعلّلها آخرون بعلل نفسيّة أو سياسيّة أو حضاريّة "[25] وقرأها فريق ثالث في ضوء العلوم الإنسانيّة الحديثة، بحثًا عن تفسير قد توحي به إنجازات تلك العلوم . فكان ثمّة دراسات نفسيّة، وأسطوريّة"[26].

تقصدنا الإطلالة من خلال هذه المقدمة، لأنّ الكاتبة قدّمت لنا قصة حب عذرية واضحة، بين كلٍّ من "صوفي" الشخصية الرئيسة في الرواية، و"أبراهام" الجندي السابق في الجيش الأميركي، هذه الحكاية التي اقتربت من حكايات جميل بن معمر وبثينة، وقصة قيس وليلى، وكأننا بحضرة شعراء كبار العصر الأموي الذين تخصصوا في هذا النوع. لما تخلّل هذه العلاقة من وفاء وتضحية وإيثار وحب عميق، تجاوز القلب، ليصل إلى العقل. ولكن اللافت أيضًا في الرواية أنّ الموضوع لم يقتصر على الحب والعاطفة، وإنّما تخطى ذلك إلى توافق تام وانسجام في الأفكار، وهذا ما دلّت عليه سيميائية العنوان "حين تعشق العقول" لذا شكّل هذا الموضوع انزياحًا عن الحب النمطي الذي عرفناه، وصولًا إلى ملامسة العشق الصوفي. "

فالدكتور شوقي ضيف، مثلًا، يرى المحبّ العذري صوفيًّا خالصًا، والشّعر العذريّ ثروة من الحبّ الصّوفيّ السّاميّ"([27]) ويذهب أدونيس إلى أنّه في حبّ جميل بثينة "تبدو بثينة صورة أو رمزًا للأنثى الكونيّة الخالقة . ويبدو هذا الحبّ بتعبير آخر حبًّا صوفيًا، وموقفًا جميلًا هنا من بثينة، يذكرنا بموقف المتصوفين من الأنثى[28]"

ولأفلاطون أيضًا في الحب محاورة مشهورة تسمى المأدبة، أجرى فيها الحوار بين سقراط وبعض معاصريه من الفلاسفة والأطباء والشعراء والسفسطائيين ورجال السياسة،

والمحاورة في مجموعها تصوّر مذهب سقراط في الحب. يقول أحد المتحاورين: إنّ الحبّ أقدم الآلهة وأفضلها، فهو الذي يبعث في الإنسان الإحساس بالشرف، وينمّي فيه الإيثار وروح التضحية. ويفرّق ثاني المتحاورين بين نوعين من الحب: نوع دنيء وضيع يلبي النزعات الجنسية، وهو حبّ النساء، والحب الشاذ للغلمان؛ ونوع شريف، يخلو خلوًا تامًا من كل نزعة جسدية وشهوة بهيمية، وهو الحبّ الذي يرتفع عن الصغائر، ويتنزّه عن الدنايا، والذي يكسب صاحبه المعرفة والحكمة والفضيلة"([29]

يمثّل الحبّ عند أفلاطون "الجسرالذي يمتدُّ ليصل ما بين الآلهة والبشر، بين السماء والأرض، بين الخلود والفناء، بين الوجود والعدم. فليس هناك فراغ بينهما، لأنّ الحبّ الكوني يملأ هذا الفراغ، وما عبادة البشر للآلهة سوى أسمى آيات الحب الذي يربط أطراف الكل في واحد. إنه البوتقة التي تنصهر فيها وحدة الوجود كله، ومنها يتألق ويتبلور."[30] "فالحبّ الحقيقي شوق إلى كل شيء مثالي، إلى الجمال والحق والخير على حدّ سواء"[31]

"وكان الغطس معمودية حبّ بينهما، لاعتراف بعشقٍ من دون كلام، كان من زمن بعيد، وربما قبل أن يلتقيا. هو عبارة عن حب تلتقي فيه الأرواح والنفوس. فالأرواح هي التي تتعارف، والنفوس هي التي تتآلف، ولذا فهو حبّ خالد لا يفنى لأنه يستمدّ خلوده من خلود الأرواح الباقية"[32] و"يشكل الحب عند أفلاطون المحور الذي يربط هذه المظاهر في منظومة متناغمة تجسّد معاني الحياة، ودلالتها السامية الرفيعة."[33]

وعن ماهية الخلق، وكيف انفصل البشر إلى نصفين، بعدما كانوا جسدًا واحدًا، حسب قول أفلاطون، يقول المحاور الثالث، وكان طبيبًا: إنّ الحبّ أصل من أصل الكون، ويخرج به من عالم الحس المحدود إلى عالم العقل الواقع الواسع. أمّا رابع

المتحاورين، وهو أريستوفان، الشاعر الكوميدي المشهور، إذ يزعم أنّ الكائنات البشرية لم تكن في أصل فطرتها كما هي اليوم: ذكرًا وأنثى، وخنثى، تجمع بين خصائص النوعين، وكان كل فرد من هذه الأنواع الثلاثة مدوّرًا على شكل هيئة كرة، وله أربع أيدٍ، وأربع أرجل يمشي عليها جميعًا... ولما غضب الإله الأكبر "زيس"، شطر كل منهما شطرين عقابًا لها ونكالًا، ومضت هذه الأشطار، يبحث كلّ منها عن شطره، رغبة في الإتحاد بهن كما كان الشأن في أصل النشأة."[34]

والواضح أنّ الكاتبة تمتلك ثقافة واطلاعًا خوّلاها أن تستخدم ما أورده أفلاطون لتدعيم فكرتها للقول إنّ ما حصل بين الحبيبين في الرواية هو من سمات الحب الأفلاطوني "من تراها تكون هذه المرأة التي سلبت كياني بنظرة؟ فأنا لستُ ممن يؤمنون بما يسمى بالحب من النظرة الأولى، إلا إذا صحت نظرية أفلاطون، بتلاقي الأرواح التي انقسمت في البدء، وكانت تعرف بعضها في عالم المثل؟ من هي هذه السيدة... لمَ يبدو لي وجهها مألوفًا جدًا وكأنني حضنتها دهورًا؟"[35]

وعلى هذا الأساس "ترجع النفوس الإنسانية إلى نفس عليا واحدة، هي مثالها المطلق الذي انفصلت عنه، وهي لا تزال تحنّ إليه، فإذا رأت ظلاله في شخص، أقبلت عليه واتصلت به، فكان الحبّ. وهو عند أفلاطون في درجات، أدناها الحبّ الجسدي الذي يتيح للإنسان شيئًا من الخلود عن طريق ذريّته، إذ يحلّ أولاده محله، فيخلد وجوده الفاني إلى حين. ويلي ذلك الحب الجنسي، حبّ روحي، يعشق فيه المحبّ نفس المحبوب، وهو أرفع من حب الجسد، وأكثر خلودًا"[36] "أنا مسرور لأنّي وجدتكِ.. وأعلم أنه لو لم أكلمك، وأكون معك حسيًا، فإني أشعر بكِ. فالأمر لأبسط من ذلك، هو تآلف روحين، كانا معًا قبل أن يهبطا إلى هذا العالم."[37]

تتابع الكاتبة وصف مشاهد الحب الخالصة بين الحبيبين "عدّلا في برنامجهما، ليطيلا فترة مكوثهما في "هاردوار، على نهر الغانج، وقد أدركا أنهما دخلا في مرحلة خطيرة جدًا من التقارب الفكري والروحي إلى درجة العشق العقلي، وربما سينعكس على انجذاب آخر."[38]

ويقول ابراهام مخاطبًا صوفي، جامعًا بها الصفات الراقية والعزيزة: "أنتِ هويتي، أنتِ انتمائي، أنتِ وطني، أنتِ جذوري، على الأرض، وفي السماء"[39] إنّها اللحظة التي تعي فيها أنّ كنوز الدنيا، والبحث عن حقيقتها لا توازي لحظة طمأنينة على من تحب. إنّه الخوف الذي يساوي الموت عند شعورك أنّك على قاب قوسين من خسارة من تحبّ. إنّه الحبّ الذي يعلّمك ألّا حقيقة خارجة عنه، ولا حياة. نعم، الحبّ، هو الحقيقة التي نبحث عنها في كلّ ما نفعل في حياتنا، هو المحرّك لكلّ أعمالنا، منه القدرة، وبه القوّة، وإليه الغاية."[40] "أوتسأل، وأنت تنام في قلبي وروحي. لك سريري، وأنام أحرس قدميك."[41]

"إني أحبّك وأحبّ كلّ ما مرّ معك. وابنك هذا الذي علمتِ بوجوده على قيد الحياة، ولو قلتِ لي إنه كان لك ألف حبيب. ولا تسخري منّي إن قلتُ لكِ إنّي وأحبّ من أحبّك في تاريخك وماضيكِ."[42]

يصعد هذا الحب ويتسامى، فيجعل الحبيب متنسّكًا زاهدًا على طريق الحب، لا يبارح المكان الذي التقى الحبيبة فيه، غير آبه بمرور الزمن، لا يلتفت إلا لشيء وحيد، وهو عودة "صوفي" إليه، مع أنها لم تتصل به، ولا يعرف مكانًا لها، وحتى إنه لا يعرف إن كانت على قيد الحياة أم لا، ولكنه ينتظر " توالت أيام وشهور وسنون، وأبراهام، قابعٌ هناك لا يبرح تلك الزاوية من النهر. كان يعلم أنها ستعود إلى البحث عنه يومًا.

كان يعلمُ أنّ ما يربطه بها أكثر من القدر بعينه... وهكذا مرّت به سنون، وهو ينتظر هناك. ويراها في أحلامه، كما يرى طيفها في كلّ ما قرأ"([43]).

ج- صراع صوفي مع نفسها ومع الأفكار

1- رؤية "صوفي"، الهند فوق العقائد: لأنّ "صوفي" كانت تشعر بالغبن والظلم والأسى، فقد انعكس كلّ من الزمان والمكان على نفسيتها، في كلّ لبنان وليبيريا والهند، وبالتالي على رؤيتها إلى هذين العنصرين السرديين،على خلفية الأحداث والشخصيات التي واجهتهما في الأمكنة المختلفة، والأزمنة المتفاوتة التي مرت بها "صوفي" عبر رحلتها في الحكاية. فكيف كان انعكاس كل من المكان والزمان عليها؟ "إن تعدّدت الأمكنة في الرّواية، وتوزّعت في مناطق مختلفة إلّا أنّه بدا أنّ هناك وشائج تربط فيما بينها، إذ تمّ توظيفها لتكون وعاءً للبحث عن الحقيقة، وتاليًا لتحقيق المبتغى الذي من أجله كانت الرحلة المعرفيّة. ويبقى للمعابد الهندوسيّة حضورها اللّافت في النّصّ الرّوائي، هناك أتيح للشّخصيّات أن تتحرّر من أسْر المادّة، وترتقي في علاقة عموديّة مع اللّه. كما شكّلت مكانًا لتلاقي أناس مختلفين حضاريًّا وثقافيًّا وجنسيًّا ولكنّهم، في تلك المعابد، ذابوا في حبّ اللّه، وفي التّوجّه إليه. تلك الأمكنة، بما ترمز إليه، مفتوحة باتّجاه السّماء، كذلك نهر الغانج بما يختزنه من دلالات تعبّديّة، مثّلَت فضاءً مفتوحًا ممتّدًا لبناء علاقة غير محدودة مع اللّه، في كلّ زمان ومكان." ويبقى أنّه في سبيل الوصول إلى الحقيقة قد يجتاز المرء قارّات، ويعيش تجارب تسلخه عن واقعه المألوف، وترميه في الطّرف الآخر من العالم، حيث يكتشف هناك ما كان يبحث عنه، وما خُلِق من أجله"([44])

لا شكّ في أنّ لبنان، وهو المكان الذي تربت فيه "صوفي" وترعرعت، وحصّلت تعليمها الجامعي؛ مثّل لها المكان المعادي، أو غير المحبب، كونها عوملت بعنصرية

واضحة بسبب لونها الأسمر، وكونها خلاسية من أب لبناني وأم إفريقية، فانعكس المكان على نفسيتها ورؤيتها " شعرتُ بنفسي كما دومًا، غريبة بين غرباء، في وطن غريب.. عيون فضولية، ومحارم جاهزة لدموع مزيفة "([45]) هذا المكان الذي كان من المفترض أنه المكان الذي ينتمي إليه الأب، وبالتالي يصبح مكانًا ينتمي إليه الأبناء والبنات بحكم القرابة والأبوّة، فمن الطبيعي أن يترك في نفس المرء شعورًا إيجابيًا بالمحبة والانتماء، ولكنه مع "صوفي" لم يكن كذلك، بل كان مكانًا منفّرًا وعدائيًا " مثل حالي في قريتي، أو الأصح قرية أبي، غير قلائل، يسموننا بالخلاسيين، ويصنّفوننا بمنزلة بين منزلة ذوات العرق الصافي اللبناني، وبين أصحاب الجذور السود."[46] لذا، يستمر الاغتراب المكاني مسيطرًا على نفس "صوفي" إن قدّمنا إليهم الولاء والوفاء، يبالغون في الاستزادة من إخضاعنا لتجاربهم، وإن أظهرنا تمردًا على عاداتهم وتجاهلًا لنميمتهم، علت أصوات أحكامهم بأحقية آرائهم بأننا من صنف لا قيمة له، ولا ثبات ولا وفاء"[47]

يرتقي غضب "صوفي" من المكان وأهله الذين أوغلوا في أذيتها" هم الناس، وشرّ بلاء الناس الإصغاء إليهم، والوقوع في زيف ازدواجيتهم." [48] ولم يقتصر الأمر على "صوفي" فقط، بل تعمل على استرجاع الزمن، حيث تستحضر ظلم والدتها في هذا المكان المعادي، لبنان، منزل أهل زوجها، والد "صوفي" " على الرغم من الضغوطات الكثيرة التي عانتها (والدتها) من قبل في منزل حميّها الذين لا يعنون لي شيئًا، ولا أشعر أنّني أحمل دمهم، ربما قساوة مني أو انتقامًا لأمي التي لم يحبوها يومًا لسواد بشرتها، وسواد قلوبهم، أو ربما لجهل عقولهم. أو ربّما لشعوري بعدم الانتماء إليهم."[49]. تنتقل "صوفي" إلى مكان آخر شكّل أيضًا ذكرى أليمة في نفسها، وارتبط بزمن قاسٍ، وهو زمن فقدان والدتها "عادت بي الذكريات إلى أمطار ذلك اليوم الهاطلة في السماء وقلبي إلى العام 1996، عندما هرعتُ إلى مشفى الكاثوليك هوسبيتال في منروفيا، دخلتُ

غرفتها رقم19 ووجدتُ السرير فارغًا إلا من طيفها... حينذاك، أسرعتُ وهرولتُ وركضتُ وبكيتُ وبكيتُ، ومشيتُ تحت المطر فاتحة ذراعي للريح للهواء للماء إلى ما لا نهاية، إلى اللاأفق"[50]

2- الشرق والغرب بين العبادة والطقوس: ظهرت لنا "صوفي" شخصية تمتلك رؤية ثاقبة، تحلّل وتنتقد وتقارن وتطرح أسئلة إشكالية. وهذا ما فعلته عندما وصلت إلى الهند، وزارت المعبد المتواضع هناك، ما جعلها تستذكر زيارتها إيطاليا، وكاتدرائية القدّيس بطرس فيها، فتقيم مقارنة بين المكانين "لا أدري لماذا قفزت إلى خاطري تلك المقارنة بين ما أعيشه اليوم في هذا المعبد، وبين ما رأيته في كاتدرائية القديس بطرس، ما هذه المفارقة يا ربي؟ وأين أنت حقًا؟ هنا؟ في هذه البساطة، وهذا الخشوع الكليّ...أم تراك يا ربي تحب الفخامة والمظاهر والياقوت المرصّع على تيجان كهنتك وأثوابهم المذهّبة؟ أو تراك تحبّ الأوروبيين وبيض البشرة، فتيسّر لهم سبل الراحة ليبجّلوك ويرشوك بأفخم الهندسات العمرانية؟"[51] تثير فيها زيارتها الهند والمعبد شهيّة المقارنة الاجتماعية، ونقد التفاوت الطبقي في مكان من الضروري أن يكون أبعد شيء عن التفاوت الاجتماعي ولا سيما من خلال المكان " لا أدري لما تولّدت في داخلي تلك النقمة على طبقية، ولا عدالة رأيتهما بأمّ عيني، على خشوع البسطاء وإيمانهم، وفخامة المتعجرفين ولا مبالاتهم."[52]

لقد اعتملت في عقل "صوفي" الكثير من الأسئلة المرتبطة بالدِّين وبالإله والطقوس، وكان المكان هو المحفّز لها لتعويم تلك الأفكار وتحفيزها، ومن ثم التعبير عنها، لأنّ المكان هو العنصر المادي الذي يترجم الأفكار والرؤى والفلسفات. وحين اجتمعت مع "أبراهام" تبدلت النظرة إلى المكان، الذي أصبح ورديًا وجميلًا "حين وصلنا إلى جايبور،

عرفنا من السائق الذي أقلّنا إلى الفندق سرّ تسميتها بالمدينة الوردية، لأنّ جميع جدرانها، وأغلب مبانيها القديمة ورديّة اللون كما أرى الدنيا وجمالاتها مع أبراهام."[53]

د- صوفي، وصراع الأفكار والأسئلة الوجودية: لقد تميّزت الرواية بكثافة الأسئلة والأفكار التي تتعلق بالوجود والخلق والخالق، بالأديان الإلهية وغيرها، ولا سيما على لسان الشخصية الرئيسة "صوفي" فتزاحمت الأفكار في رأسها،واختلطت الأسئلة، بحيث صار الضياع سيد الموقف.

تستهل الكاتبة هذه الأسئلة على لسان الراوي المشارك، والعارف بكل التفاصيل "ولطالما تساءلتُ لما يترك الإنسان هناءة العيش، من أجل التفتيش عن حقيقة هاربة لطالما بحث عنها حكماء التاريخ وفلاسفته ومفكروه، ولم يجدوا أجوبة شافية للروح ومقنعة للمنطق، إلا ما كان منها تسليمًا إيمانيًا مطلقًا بإله كلي قادر لا يُسأل ولا يحاسب، لأن لديه أسرار الخلق والوجود."[54] لذا يظهر"أنّ فهم العلاقات القائمة بين النص الأدبي، والواقع الاجتماعي وتجسيدها، حيث لا يعكس العمل الأدبي، ولا يعيد إنتاج الوقائع الاجتماعية، وإنما يقوم بوظيفة إيحائية "[55] فالأسئلة التي طرحتها "صوفي" اعتملت في عقلها على خلفية الواقع الاجتماعي الذي فُرضَ عليها كـ"خلاسية" حملها والدها من ليبيريا إلى لبنان، ليضعها وجهًا لوجه مع مجتمع جديد، ويفرض عليها علاقات اجتماعية غريبة عنها، لذا كانت الأسئلة تغلي في رأسها عن سبب وجود هذه الفوراق بين البشر، بسبب لون وأصول وأمكنة. ما جعل "صوفي" تستمرّ في طرح أسئلتها، عن الدين والمجتع والإله، فتسأل عن ملايين البشر الذين لا يمارسون طقوسهم الدينية عبر مفهوم التديّن الإلهي، فكيف سيحاسبهم الله؟ "هل ثمة خلاص خارج الآلهة التي نعرفها؟ هم ليسوا شخصًا أو اثنين، هم يعدّون بملايين البشر؟ أيكون الله عنصريًا أيضًا؟ غضب على هذا الشعب لأنه ذو سخنة داكنة على اصفرار لا نضارة فيه"[56]

تصل "صوفي" إلى مرحلة التيه والغربة عن نفسها، وعن كل ما عرفته عن الأديان، لأنّها لم تجد أجوبة شافية على أسئلتها، إضافة إلى الأجواء الجديدة التي تعاينها، والمشاهد المتلاحقة التي تمر أمام ناظريها، إضافة إلى حالتها النفسية المتعبة جراء ما حصل معها في لبنان " وبين سكينتي وهزيمتي، استسلمتُ لغربتي عن الدين والدنيا. تائهة في خرائب الوجود، أبحث في خبايا الوجوه النائمة والواهمة، عن كون، عن أصل، عن ربٍّ يئس من بنيه وهجر... غريبة أسائل النفس وأعاتبها: لمَ يا نفس لوامة أنت؟! أمّارة بالقهر؟ واهنة تهنين وتهانين؟ من حبّ، من فرح، مذ عرَفَتْ أنها طوافة في فسحة من العدم. صارت دوامة سؤال وأنين."[57]

كلما استغرقت "صوفي" في رحلتها، وفي مشاهداتها، في الهند، هذا البلد الذي يمارس طقوسًا مختلفة عما اعتادت معاينته؛ كلّما واجهتها التساؤلات الكثيرة والجديدة. فتقف على ضفة نهر "الغانج" لتراقب مشهد المؤمنين يغتسلون في النهر، ويغسلون ذنوبهم وآثامهم في مائه، في معيّة تمثال كبير للإله "شيفا" يزيد على الأربعين مترًا من الرخام الخالص، يحرس قدسية المكان "اقتربت من النهر كثيرًا لتحرص على أن تبقى شمعتها مضاءة، تريد أن تقترب من ذلك الإله المتجسّد في نهر. ما تراه يكون، ولمَ تحبّ جميع الآلهة الأضاحي؟ حتى الله، أولم يطلب من إبراهيم التضحية بابنه، وحيده؟ وكأنّ الآلهة تستمد وجودها تضحية الناس بنفسها"[58]

أصبحت الأفكار في رأس "صوفي" تخوض صراعًا واضحًا، تتقدم واحدة لتتراجع الأخرى، ولكنها لم ترسُ على رأي، وبقي ما تربّت عليه من أفكار حاضرًا، يمثّل الأنا الأعلى ، أو الضمير الديني عندها، يقضّ مضجعها، ويؤرق راحتها، مع أنها لم تتخّذ قرارًا حاسمًا في أي طريق ستسلك، وإنما شرّعت أبواب عقلها على عواصف الأفكار،

ونلاحظ في غير مكان من الرواية تدخلًا واضحًا للراوي كلّي المعرفة، الذي يتدخل سامحًا لنفسه قراءة ما يجول في عقول الشخصيات، وماذا تفكّر. يقول الراوي: "كان "أبراهام" يعلم أنّ "صوفي" في مرحلة تيه كلّي، تشعر بذنب كبير، فرحة بما تقوم به من طقوسيات لطالما اعتبرتها وثنية، لكنها مبهورة إلى درجة تماهٍ بالهندوسيين. تريد أن تؤمن بكل ما قالوا. لكن، لا يكون التحوّل جذريًا. فهناك ما يسمى بالضمير الديني في المرصاد دومًا... شعر بإحساسها وكأنها أذنبت بحق "يسوعها" ولو أنها لم تعترف له بذلك."(59)

خاتمة: في نهاية هذا البحث، الذي درسنا فيه رواية "حين تعشق العقول" وحاولنا الإطلالة على ما اختزنته الشخصيات من رؤى إلى العالم والكون والخلق والوجود، من خلال الأسئلة الكبيرة والكثيرة المتنوعة التي طرحتها الكاتبة في الرواية، التي أرادت أن تدلقها على الصفحات المنهكة ، تبيّن لنا أنّ شخصيات الرواية، ولا سيما تلك التي تدور في فلك "صوفي" الشخصية الرئيسة، تحمل أفكارًا وتساؤلات، تستبطن اعتراضًا وتشكيكًا في كثير من الأفكار الجاهزة التي يعمل المجتمع على إسقاطها وتذويبها في عقول أبنائه، التي تجعل هذا العقل متحجّرًا غير قابل لاستقبال أي فكرة جديدة. ولكن تنوّع الأمكنة، من ليبيريا إلى لبنان، فالهند، فالولايات المتحدة الأميركية، إضافة إلى امتداد الزمن، والمشكلات الكبيرة التي عانت منها الشخصيات، ولا سيما "صوفي" و"أبراهام" صقلت هذه الشخصية، وكسرت القوالب الجامدة في العقول، وانتقل العشق والحب من المفهوم النمطي الوجداني، إلى العشق العقلي الذي يروم إلى الانفتاح على العالم، من دون الخضوع إلى أي إسقاط أو أنموذج جاهز، فانطلق العقل متحررًا في فضاء الحرية معانقًا تساؤلاته الكثيرة، فيرى المشهد من غير زاوية، بكليّته، ولو أنّ هذه الأسئلة قد راكمت الحزن، ولم تشفِ الصدر، فتسلّم "صوفي" الراية إلى المتلقي، بعدما

حطّ بها المرض في المحطة الأليمة ،التي وصل إليها الحبيبان، في استعادةٍ مفاهيم الحب العذري العفيف، الذي ظهرت سماته واضحة بين سطور الرواية، أو الاقتراب من الحب الأفلاطوني الذي يبتعد من كل نزعة جسدية وشهوة بهيمية، وهو الذي يرتفع عن الصغائر في رحلة سموّه، فتتعانق في فضائه الأرواح والنفوس. ساعية إلى التوحّد مع مثالها المطلق الذي انفصلت عنه، وهي التي لا تزال تحنّ إليه.

المصادر والمراجع

المصادر

1- الخوري غريب، ناتالي، حين تعشق العقول، دار سائر المشرق،طبعة اولى 2015

المراجع العربية والمعربة

1- أحمد، عدنان محمد ،الظاهرة العذرية بين جواب الإبداع وسؤال التلقي، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، المجلد 37 العدد الثاني 2015.

2- أبوعلي، عبد الرحمان، تأثير النقد السوسيولوجي في الدراسات العربية، مجلة الوحدة ع 49 سنة 1988

3- أبي فاضل، ربيعة، صحيفة الحياة، الأحد 25 كانون الثاني 2015

4- البلوحي، محمد، الشعر العذ ري في ضوء النقد الحديث، دمشق اتحاد الكتاب العرب 2000

5- أدونيس، أحمد سعيد، علي،الثابت والمتحول، بحث في الإبداع والاتباع، بيروت،دار الساقي،ط 7 1994

6-بدير، نازك، التّعدديّة الدّينيّة والبحث عن الحقيقة، صحيفة السفير،2015/1/5

7- بون، باسكادي، البنيوية التكوينية، ولوسيان غولدمان، ترجمة محمد سبيلا ، مجلة آفاق ع 10 س 1982.

8- حافظ دياب، محمد ،النقد الأدبي وعلم الاجتماع، مجلة فصول ع 1 س 1985.

9- زغيب، نبيل، الحب الأفلاطوني بين الوهم والحقيقة،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة 1998 لا طبعة.

10- ضيف، شوقي، الحب العذري عند العرب، الدار اللبنانية المصرية، 1999 لا طبعة.

11- عزام، محمد ، فضاء النص الروائي، مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا 1996.

12-- القط،عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي، مصر ،مكتبة الشباب،1991

13-- محمد الطالب، عمر، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار السير، طبعة أولى 1988، الدار البيضاء.

14- نسر، علي، حين تعشق العقول، العقل إن تحرر، صحيفة النهار، 2014/12/17

المراجع الأجنبية

1 -Goldman. L : Le dieu caché – Ed : Gallimard , Paris, 1995. p 26

الهوامش والإحالات.

[1]- ناتالي الخوري غريب، حين تعشق العقول، دار سائر المشرق، طبعة اولى 2015 الغلاف الخارجي.

[2]- علي نسر، حين تعشق العقول، العقل إن تحرر، صحيفة النهار، 2014/12/17

[3]- ربيعة أبي فاضل، صحيفة الحياة الأحد 25 كانون الثاني 2015

[4]- محمد حافظ، دياب –النقد الأدبي وعلم الاجتماع، مجلة فصول ع 1 س 85، ص: 60

[5]– باسكادي بون . البنيوية التكوينية ولوسيان غولدمان، ترجمة محمد سبيلا، مجلة آفاق ع 10 س 1982، ص :22.

[6]– محمد عزام، فضاء النص الروائي، مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا 1996 ص42

[7]– Goldman . L : Le dieu caché – Ed : Gallimard , Paris, 1995. p 26 –

[8]– البنيوية التكوينية ولوسيان غولدمان ، مرجع سابق ، ص :23.

[9]– ربيعة أبي فاضل مرجع سابق.

[10]– ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص 7.

[11]– المصدر نفسه، ص 84.

[12]– المصدر نفسه، ص 84.

[13]– ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص 138.

[14]– المصدر نفسه 138–139.

[15]– المصدر نفسه ص84.

[16]– ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص69.

[17]– المصدر نفسه ص70.

[18]– المصدر نفسه، ص71.

[19]– المصدر نفسه ص84.

[20]– ناتالي الخوري، حين تعشق العقول ص 107.

[21]– المصدر نفسه ص107.

[22]– المصدر نفسه ص80.

[23]– ناتالي الخوري، حين تعشق العقول ص80.

[24]– عدنان محمد احمد، الظاهرة العذرية بين جواب الإبداع وسؤال التلقي، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، المجلد 37 العدد الثاني 2015 ص 131.

[25]– عبد القادر القط،، في الشعر الإسلامي والأموي، مصر،مكتبة الشباب، 1991 ص 77.

[26]- محمد البلوحي . الشعر العذ ري في ضوء النقد الحديث، دمشق اتحاد الكتاب العرب 2000 ص 36.

[27]- شوقي ضيف، الحب العذري عند العرب، الدار اللبنانية المصرية، 1999 لا طبعة ص23.

[28]- أدونيس، علي أحمد سعيد .الثابت والمتحول، بحث في الإبداع والاتباع، بيروت، دار الساقي،ط 7 1994 ص1/284.

[29]- شوقي ضيف، مرجع سابق ص9.

[30]- نبيل زغيب، الحب الأفلاطوني بين الوهم والحقيقة،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة 1998 لا طبعة. ص 136.

[31]- نبيل زغيب الحب الأفلاطوني ص 148.

[32]- نبيل زغيب، الحب الأفلاطوني، مرجع سابق ص 62.

[33]- نبيل زغيب الحب الأفلاظوني ص 139.

[34]- شوقي ضيف، الحب العذري، ص 10.

[35]- ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص 58.

[36]- شوقي ضيف، الحب العذري ص11.

[37]- ناتالي الخوري،حين تعشق العقول 75,

[38]- ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص61.

[39]- المصدر نفسه 86.

[40]- المصدر نفسه ص88.

[41]- المصدر نفسه ص 88.

[42]- المصدر نفسه ص96-97

[43]- المصدر نفسه 113- 114

[44]- نازك بدير، التّعدديّة الدّينيّة والبحث عن الحقيقة، صحيفة السفير،2015/1/5

[45]- ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص7

[46]المصدر نفسه ص8 .

[47]– ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص8

[48]– المصدر نفسه ص8.

[49]– المصدر نفسه ص9.

[50]– المصدر نفسه ص10.

[51]– المصدر نفسه ص 32.

[52]– ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص 32

[53]– المصدر نفسه ص 86

[54]– المصدر نفسه ص31.

[55]– عبد الرحمن ابو علي، تأثير النقد السوسيولوجي في الدراسات العربية، مجلة الوحدة عدد 49. السنة 1988 ص 34.

[56]– ناتالي الخوري،حين تعشق العقول ص 31

[57]– المصدر نفسه ص 53.

[58]– المصدر نفسه ص 57– 58.

[59]– ناتالي الخوري، حين تعشق العقول ص64.